

الموشحات المولدية في الشعر الجزائري القديم نونية أحمد بن عمار الجزائري-أنموذجا-

*The Muwashahat Al-Mawlid in Old Algerian Poetry:
Nooniyah by Ahmed Ben Ammar Al-Jazairi as an Example*

رزيقة رويقي*

جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي

تبسة / الجزائر

Raziqa.rouigi@univ-tebessa.dz

تاريخ الارسال: 2024/02/23 تاريخ القبول: 2024/04/29 تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص:

زخر ديوان الشعر الجزائري القديم بميراث شعري كبير تفرد لغرض المديح النبوي الشريف، فتبارى الأدباء والشعراء والمتصوفون، وكذا علماء الدين في هذا الميدان العذب، كل ينهل من فيضه ويزجي سحب حبه وعشقه لسيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم. وقد جاء هذا البحث ليوقف عند أولئك الذين أبدعوا في أضرب المديح المختلفة، وعلى رأسها الموشحات المولدية التي مثلت أنموذجا فنيا مكتملا لدى الشاعر الأديب "أحمد بن عمار الجزائري"، ومظهرها من مظاهر التجديد في الشعر المولدي خلال القرن الثاني عشر للهجرة. لنتبين من خلالها كيف أصبح الموشح المولدي غرضا مستقلا بعدما كان جزءا من مجموعة أغراض متمازة داخل القصيدة الواحدة. كما استطعنا من خلال مقالنا الكشف عن خاصية الكتابة الموشحية في المديح النبوي عبر أقفالها وأبياتها وخرجاتها.

الكلمات المفتاحية: الشعر، المديح، الموشح، المولديات، أحمد بن عمار الجزائري.

Abstract:

The ancient Algerian poetry anthology is enriched with a substantial poetic legacy dedicated to praising the noble Prophet, as authors, poets, Sufis, and religious scholars competed in this rich field. Each drew from their own inspiration, weaving clouds of love and devotion for the master of prophets,

* المؤلف المرسل.

Muhammad, peace be upon him. This research aims to focus on those who excelled in various forms of praise, notably the Muwashahat Al-Mawlid, which represented a complete artistic model in the hands of the scholar-poet Ahmed Ben Ammar Al-Jazairi, showcasing a form of innovation in Mawlid poetry during the twelfth century of the Hijri calendar. Through it, we aim to demonstrate how the Mawlid Muwashah evolved into an independent genre after previously being part of a blend of objectives within a single poem. Additionally, our article reveals the unique characteristics of Muwashah poetry in praising the Prophet through its structure, verses, and thematic content.

Keywords: Poetry ; The praise ; Muwashshah ; Mawlid ; Ahmed ibn Ammar Al-Jazairi.

مقدمة:

عرف تاريخ الجزائر الشعري جمهرة من الأدباء، والشعراء الذين كرسوا قرائحهم الشعرية للموضوعات الدينية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - فكانت دواوينهم الشعرية بطابعها الدينية حاضرة في مختلف المناسبات والاحتفالات، ولعل أبرز ما يميزها تلك القصائد المدحية التي أفردت لشخص النبي عليه الصلاة والسلام دون غيره، فمدحه الشعراء وتغنوا بمولده الكريم وسيرته العطرة، بل وشحوا قصائدهم، وكتبوا الموشحات المولدية في شهر مولده الشريف، حتى يتسنى لهم إنشادها احتفاءً باليوم العظيم والشهر العظيم. فماذا نعني بالمديح المولدي؟ وكيف زاحمت الموشحات الشعرية غرض المديح النبوي في الشعر الجزائري القديم؟ ومن أبرز أعلامها؟.

والشاعر أحمد بن عمار الجزائري (ت1205هـ) مفتي المالكية بالجزائر، من أكثر من كتب في المديح النبوي والموشح المولدي. وقد أفرد ديوانا في مدح النبي عليه الصلاة والسلام، ويعد من النفائس المفقودة. كما وشح رحلته الحجازية بقصائد مدحية ومولدية نادرة وهامة. وقد ارتأينا في بحثنا تسليط الضوء على هذا النوع من المدائح النبوية، وهو الموشح المولدي في شعرنا الجزائري القديم من خلال ما أثر عن ابن عمار الجزائري سيما في مقدمة مصنفه "الرحلة"، ومن خلال موشحته النونية المطولة في مدح خير البرية بهدف، التعرف على خصائص الكتابة المولدية في شعرنا القديم وأهم المضامين التي عالجتها، مستندين في ذلك إلى آلية المنهج الوصفي التحليلي في الجمع بين ما هو نظري وتطبيقي.

أولا/ المديح النبوي في الشعر 01/ فن المديح في الشعر

لم يخل فن الشعر عند العرب من غرض المدح والثناء منذ العصر الجاهلي، فلطالما شغل الممدوح حيزا كبيرا في قصائد الشعراء نساء كانوا أم رجالاً، حتى صار المدح غرضاً مستقلاً، من أغراض الشعر العربي، وقد حُفظت تلك الأشعار المدحية وحفظ أصحابها من خلال الإنشاد والذاكرة، يقول أدونيس >> كان الإنشاد والذاكرة بمثابة الكتاب الذي ينشر الشعر الجاهلي من جهة، ويحفظه من جهة ثانية<<⁽¹⁾. ولأن المديح يرتبط بما يميل إليه الإنسان بطبعه من حسن الثناء والإطراء، فقد لاقى هذا الفن رواجاً كبيراً في مختلف الآداب وعلى رأسها الشعر. لذا مال إليه الشعراء ونظموا القصائد المتعددة في مآثر الفرد أو الجماعة كالقبيلة، فكان فن المديح من أكثر الفنون الأدبية شيوعاً ورواجاً⁽²⁾. كما أن المديح في الشعر الجاهلي ارتبط بالجماعة أكثر من ارتباطه بالفرد. كما امتاز >> بالصدق والعفوية، لكنه في العصور التالية أصبح تكسبياً وأصبح الشاعر يتفنن في استعاراته وتشابيهه لدرجة الغلو. والجدير بالذكر أن المدح قيل أولاً لمجرد الإعجاب الصادق ثم قيل للشكر ثانياً وأخيراً للتلزف والتكسب، فأصبح مهنة تدر الكثير من المال<<⁽³⁾.

لم يكن للمديح في أول عهده قصائد مستقلة، بل كان جزءاً وغرضاً من مجموعة أغراض تتداعى في القصيدة، فيمتزج بعضها بعض فمن الغزل والفخر إلى المديح والوصف يتدرج الشاعر الجاهلي⁽⁴⁾، ليستقل بعد العصر الجاهلي ويتخذ لنفسه نصوصاً شعرية بل ودواوين شعرية كاملة كما هو الحال في العصور الإسلامية كصدر الإسلام والعصر الأموي وحتى العصور الحديثة.

رأى النقاد أنّ مذاهب الشعراء في فن المديح متعددة وسبلهم متشعبة، ولكنهم- أي النقاد- وضعوا أسساً وقواعد تؤطر هذا الفن وتوضح دائرته، فهذا ابن رشيق القيرواني أفرد باباً للمديح، وذكر فيه سبل الشاعر في المدح. فإذا مدح الشاعر ملأً عليه أن >>يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره الممدوح، وأن يجعل معانيه جزلة وألفاظه نفية، غير مبتذلة سوقية، ويجتنب- مع ذلك- التقصير والتجاوز والتطويل فإن للملك سامة وضجراً<<⁽⁵⁾، أما إن كان الممدوح كاتباً أو وزيراً فينغي >> أن يكون قصد الشاعر في مدح الكاتب ووزيره ما اختاره قدامة وغيره، وكذلك ما ناسب حسن الروية وسرعة الخاطر بالصواب، وشدة

الحزم، وقلة العقل، وجودة النظر للخليفة، والنيابة عنه في المعضلات بالرأي أو بالذات كما قال أبو نواس:

إذا نابه أمر فإما كفيته وإما عليه بالكفي تُشير

وبأنه محمود السيرة، حسن السياسية، لطيف الحسن، فإن أضاف البلاغة والحظ والتفنن في العلم كان غاية>>⁽⁶⁾. ويمدح القاضي بـ العدول والإنصاف والمساواة، ولين الجانب وغيرها. كما أن أفضل ما يمدح به القائد: الجود والشجاعة والجدة وسرعة البطش وما تفرع منها⁽⁷⁾. كما أجمع النقاد على أن للمدح ضروب أربعة هي فضائل الإنسان على الحقيقة: العقل والعفة والعدل والشجاعة⁽⁸⁾.

02/ المديح النبوي في الشعر العربي

بمجيئ الإسلام وانتشار أنوار الهداية، عرف العرب والعالم أجمع فتحا عظيما وانتقل العربي من ظلام الجهل إلى نور الإسلام، فتغيرت معالم الحياة بكل مستوياتها الاجتماعية، والسياسية، الدينية، والفكرية، وكذا الأدبية والفنية. ولارتباط العربي بالفصاحة والشعر على وجه الخصوص كان لا بد من النظر في المنعرج الجديد لحياة الشعراء والأدباء، فالغالب على رسالة الشعر الجاهلي قبل ظهور الإسلام انحرافها عن مكارم الأخلاق وما يستقيم بها أمر المجتمع، حيث كان هاتكا للحرمان ومثيرا للنعرات العصبية وما يقوم مقامها من حض على القتال والتناحر ليكون بذلك من أكبر أسباب شتات العرب، ودمار بيئتهم في العصر الجاهلي، ليحل الإسلام بعد ذلك داعيا إلى الإخاء والعفة والكرامة وحسن الأخلاق، والقصد في القول والعمل، فحرم كل قول يهدم ببناء المجتمع وقوام العلاقات بين المسلمين، وأباح ما يتوافق والتعاليم المستمدة من القرآن الكريم والسنة الشريفة⁽⁹⁾.

إنّ موقف الإسلام من الشعر واضح جلي، فلم يحرم الإسلام قول الشعر، وإنما هذبه وجعله يجري مجرى الكلام العادي في الحكم، فقبيحه منبوذ محرم، وحسنه مشروع مقبول. وقد كان لمعسكر التوحيد شعراؤه المنافحون عن الدين الجديد كحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وغيرهم.

كما عرف الشعر في صدر الإسلام أغراضا جديدة ومستقلة كالشعر الديني، شعر الزهد، الشعر السياسي، شعر الوعظ والإرشاد، وشعر المديح النبوي. فرغم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم وجّه الشعراء إلى الدفاع عن الإسلام ونشر أسسه وتعاليمه السمحاء، إلا أن بعض

الشعراء اتخذوا من هذا الموضوع سبيلا لمدح النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت قصائدهم المدحية أقرب إلى الشعر السياسي منها إلى المدح التقليدي؛ لذا حاول الشعراء تأكيد رسالة الإسلام وما جاء به من تهذيب للنفوس وتطهير للقلوب عبر مختلف مدائحهم النبوية⁽¹⁰⁾.

وقد كان حسان بن ثابت من أكثر الشعراء وأبرزهم في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ليتضمن شعره بذلك << نواة المدائح النبوية، والنموذج الذي حاكاه أو عارضه كثير من شعراء تلك المدائح فيما بعد>>⁽¹¹⁾ سواء ما قاله حسان في حياة النبي عليه الصلاة والسلام من قصائد مدحية ودينية، أو ما قاله بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، كمرثياته الشهيرة. يقول في إحداها:

وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ
أَعَفَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ وَأَقْرَبَ مِنْهُ نَالًا لَا يَنْكَدُ
وَأَبْذَلَ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدٍ إِذَا ضَنَّ مَعْطَاءُ بِمَا كَانَ يُتَلَدُ
وَأَكْرَمَ صَيْتًا فِي الْبُيُوتِ إِذَا انْتَمَى وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيًّا يَسْوَدُ⁽¹²⁾

يعدد حسان بن ثابت خصال وفضائل النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ومكارم أخلاقه، فلم تفقد الأمة مثله إلى يوم القيامة، والملاحظ على مدائح حسان تشبعه بالمفاهيم الإسلامية، وكيف يوظف ما يحفظ من القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في شعره توظيفاً جالياً⁽¹³⁾.

كما نجد إلى جوار حسان بن ثابت عديد الشعراء الذين عاصروا النبي عليه الصلاة والسلام ومدحوه في أشعارهم وتغنوا بصحبته وإتباعه من أمثال: كعب بن مالك، عبد الله بن رواحة وغيرهما. وبحلول عصر الخلافة وما تلتها من عصور شهدت تعدد الأحزاب والفرق والنحل، ظهرت المدائح النبوية في إطار حزبي كما هو الأمر مع شعراء الشيعة من أمثال الكميت بن زيد الأسدي، والسيد الحميري، يقول الباحث محمود علي مكي: << وقد رأينا- فيما مربنا من شعر الشيعة وقصائدهم في مرثي الحسين، أو في الاحتجاج لحق آل البيت في الإمامة- أنها كانت تتخذ من وصف شمائل الرسول، والإشادة بالمناقب النبوية منطلقا للحديث عن فضائل آل البيت، ولهذا يمكن اعتبار كثير من هذا الشعر الشيعي ضربا من المدائح النبوية>>⁽¹⁴⁾.

ثانياً/ الموشحات المولدية في الشعر الجزائري القديم 01/ المولديات النبوية في المغرب العربي

ازداد اهتمام الأدباء والشعراء بالمدائح النبوية في بلاد المغرب والأندلس، حيث بدأ الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في المغرب، منذ مطلع القرن السابع الهجري، ولعل ذلك يرجع إلى تأثر المغرب بالخلافة الفاطمية التي كانت تحيي المولد النبوي كعيد من الأعياد التي تحتفل بها.

لقد أصبح المولد النبوي الشريف سنة (691هـ) عيداً رسمياً في المغرب والأندلس مع وجود شواهد كثيرة تدل على الاحتفال به في غرناطة قبل هذا التاريخ بزمان طويل. أما في القرن الثامن للهجرة فقد اتخذ المولد النبوي بصفة خاصة من مظاهر الفخامة والاحتفاء ما جعله أعظم الأعياد الإسلامية، وقد أقام السلطان "أبو حمو موسى بن يوسف الزناني" ملك تلمسان احتفالات كبيرة⁽¹⁵⁾ وهي العناية التي حظيت بها أيضاً بلدان المغرب الأخرى كغرناطة وفاس وتونس، وهكذا اعتنى العالم الإسلامي شرقه وغربه بالمولد النبوي منذ مطلع القرن السابع الهجري بفضل احتفاء الملوك والأمراء به، ولعل ما زاد الاهتمام بهذا العيد العظيم وبما رافقه من أدب وفير، ما كان للفكر الصوفي من حضور وانتشار في المغرب⁽¹⁶⁾.

لقد تضافرت هذه العوامل وكانت دافع الشعراء لنظم القصائد المدحية النبوية، ومنها ما ارتبط بالمولد النبوي فسميت بالقصائد المولديات، وقد كانت أغلب تلك القصائد والأشعار تندرج ضمن موضوع واحد، ويكثر فيها الحديث عن معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أكثر الناظمون من طلب الشفاعة والتوسل بقبر النبي الكريم، لهذا أنكر عديد العلماء الاحتفال بالمولد النبوي خاصة فيما شاع بين العامة من الاحتفال بموالد الأولياء والصالحين، وعدّوها بدعة ضارة، وهو ما ذهب إليه شيخ الإسلام "ابن تيمية" - رحمه الله - والإمام محمد بن عبد الوهاب (1992م) صاحب الدعوة السلفية⁽¹⁷⁾.

وعن المولديات في بلاد الجزائر قديماً، أفاد الفقيه العلامة أحمد بن عمار الجزائري (ت 1204هـ) في مقدمة رحلته "نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب" أن بلاد الجزائر من أكثر البلدان احتفاءً باليوم العظيم، وكان أدباؤها وشعراؤها ينظمون مختلف القصائد والموشحات لإنشادها ليلة المولد، يقول: >> وقد جرت عادة أهل بلادنا الجزائر، حرسها الله من الفتن وحاطها من الدوائر، أنه إذا دخل شهر ربيع الأول، انبرى من أدباؤها وشعرائها من إليه الإشارة وعليه المعول، إلى نظم القصائد المديحيات والموشحات النبويات

ويلحنونها على طريق الموسيقى بالألحان المعجبة، ويقرؤونها بالأصوات المطربة، ويصدعون بها في المحافل العظيمة والمجامع المحفوفة بالفضلاء والرؤساء والنظيمة من المساجد والمكاتب والمزارات، وهم في أكمل زينة وأجمل زي وأحسن شارات، تعظيما لهذا الموسم الذي شرف به الإسلام، واحتفالاً بمولده عليه الصلاة والسلام»⁽¹⁸⁾.

وقد أطنب صاحب المصدر في الحديث عن عادات الجزائر وبعض الأمصار في الاحتفال بالمولد النبوي، وعرض جملة من الأقوال الفقهية في حكم الاحتفال وطرق الخروج من البدع في اليوم العظيم لمولده صلى الله عليه وسلم.

02/ الموشحات المولدية

يندرج فن الموشح ضمن دائرة الشعر التجديدي في بلاد الأندلس، فيها نشأ وتطور وأصل تسمية هذا النوع من الشعر بالموشح أنه يعود إلى التوشيح والزينة التي ترتديها المرأة وهو الوشاح الذي يوضع بين عاتقها وكشحا ويتميز كالرونق والجمال⁽¹⁹⁾، وسمي الموشح بذلك لأنَّ >> أقفاله وأبياته وخرجته كالوشاح للموشحة، بخلاف الشعر التقليدي الذي يأتي على طراز واحد، أي على رتابة القافية والأوزان الخليلية المرعية لما قبله وما بعده، وهذا يتجلى في أقسامه من أقفال وأبيات وأجزاء هذه الأقسام وقوافيها المتنوعة>>⁽²⁰⁾. وأكثر ما يميز الموشح عن القصيدة التقليدية هو شكلها ووزنها يقول ابن سناء الملك: >> الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص، وهو يتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويقال له التام، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات. ويقال له الأقرع، فالتام ما ابتدئ فيه بالأقفال، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات>>⁽²¹⁾. أما أوزانها فممنها ما كان على أوزان العرب ومنها ما خرج عن الأوزان التقليدية وتفرد بها الموشح.

لقد نشأت الموشحات استجابة لطبيعة الغناء والترف الذي عرفت به الأندلس في تلك الفترات، فالموشح ينظم ليغنى وينشد ويطرب له المغنون، وقد ارتبط من حيث الأغراض بشعر النسيب والغزل. ولطبيعة أوزان الموشح وجد فيه شعراء المديح النبوي متنفسا لنفث زفاتهم الروحية الممتلئة حبا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، فنظموا الموشحات في مولده الكريم وأنشدوها في المساجد والزوايا والكتاتيب وغيرها. من هنا كانت الموشحات المولدية ضربا من الشعر المديحي النبوي الذي ينظم خصيصا للاحتفال بمولد النبي عليه الصلاة والسلام وقد درج شعراء الجزائر قديما على ذلك.

وقد وشح الفقيه "أحمد بن عمار الجزائري" رحلته بمجموعة من القصائد أو الموشحات المدحية، وأكد أن الموشحات المولدية مما جرى عليه أهل الجزائر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: >> وهذه الطريقة التي مدحنا بها النبي صلى الله عليه وسلم [يقصد الموشح] عليها جرى أهل بلادنا، وأرباب طارفنا من البلالة وتلادنا والشعر القريض عندنا في هذا الغرض ما أنزّره وأقله في هذا العصر والذي قبله>> (22) وهي على جمالها وبلاغتها طويلة مزينة وموشحة، تنشد لتعلم سيرة النبي عليه الصلاة والسلام وأخلاقه وكراماته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم. بعيدا عن البدع والمضرات والمفاسد التي ابتدعها الجاهلون وتمسكوا بها.

ولعل أطول موشحة مولدية وردت في مقدمة رحلة أبي عمار الجزائري، هي موشحته النونية الطويلة، التي نظمها خصيصا ليوم المولد النبوي الشريف.

ثالثا/ تجليات الوجد في نونية أحمد بن عمار الجزائري 01/ أحمد بن عمار الجزائري:

فقيه وأديب وشاعر فصيح، لم يكتب عن نشأته ومولده ما يغنيننا في التعريف به لذلك نكتفي بما قدمه عنه "أبو القاسم سعد الله" في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي؛ حيث ذكر الكاتب أن ابن عمار الجزائري لم يترجم لنفسه كما فعل معاصروه، بل لقد كان حريصا على الترجمة لغيره، دون نفسه، فرغم مكانته الأدبية والفقهية، إلا أنه بقي مجهول المولد والوفاة، فكل ما عرف عنه أنه من علماء القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر هجريًا، وحسب التقديرات فإنه ولد في الجزائر حوالي سنة (1119هـ) وتولى وظيفة الفتوى على المذهب المالكي عام (1180هـ)، كما ذهب الفقيه لأداء مناسك الحج عام (1166هـ) وأقام فترة بمكة كما زار العديد من الأمصار المشرقية والمغربية، وعاصر العديد من العلماء والفقهاء. من أشهر مؤلفاته: لواء النصر في فضلاء العصر (من المصنفات المفقودة)- رحلته الموسومة بنحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، وهي أيضا من المصنفات المفقودة (ما عدا مقدمتها)- رسالة في التفسير- رسالة في الطريقة الخلوتية- ديوان شعر في المدائح النبوية وهو الذي ذكره في مقدمة رحلته، وغيرها (23).

02/ تجليات الوجد في الموشحة المولدية

ينفتح المشهد الشعري عند الشاعر بفيض الوجد الذي دفعه لإرسال سلامه المحمل بدموع الشوق إلى سيد الأنام -عليه الصلاة والسلام-، إنه سلام يسرع الخطى راكبا أو محلقا ليصل إلى أرض الطهر والسلام، يقول أحمد بن عمار الجزائري:

يا نسيمًا بات من زهر الربا	يقــتفي الـركبان
أحملن مني سلاما طيبا	لأهيل البـان
أقرأن مني سلاما عبقا	إن بـدت نجد
إن لي قلبا إليها شيقا	شقه و جـد
وفؤادي يجتنها حرقا	وضـني يعدو
ودموع العين تهمي سحبا	قطرها هـتان
والكرى عن مقتلي قد غضبا	وجـفا الأجفان ⁽²⁴⁾

تنهمر دموع الشوق إلى زيارة الحبيب، فتزداد حرارة الأجفان والمقل إلى رؤية نوره وزيارة قبره الشريف، لذا يرفع الشاعر صوته الشجي مخاطبا أهل المدينة مذكرا إياهم بأن الحبيب النبي يسكن دارهم، ما يحمله على حث الخطى إلى طيبة. إنه الوجد والشوق إلى محمد صلى الله عليه وسلم، والذي دفع بالشاعر إلى مدح شخصه ونسبه المفدى عليه الصلاة والسلام:

يا بني طيبة لي فيكم حبيب	راق مرءاه
يألف الخيف وبالقلب الكسيب	بيت سكناه
رق لي المدح كما رق النسيب	في سجاياه
من قريش قد توخى نسبا	في بني عدنان
حبه ديني وكنزي المختبا	وبع ازدان
بأبي منه محيا محقا	نوره البدرا
وقواما بنثي غصن نقا	خضلا نضرا
ورضاها مستطابا عبقا	يرئ الضرا
يتراءى وسط ثغرا شوبا	لاح في مرجان
من جنا الشهيد ذو اقا أعذبا	ينعش الظمئان ⁽²⁵⁾

إنه البدر في نوره، والعظمة في أخلاقه، والكمال في جماله صلى الله عليه وسلم، لقد كان مصدر إلهام الشاعر في نظمه لقصائده المدحية "وصفا أخلاقه عرفني أنظم الشعرا" فجادت قريحته بأعذب المدح وأطرب الوصف. وكانت موشحته النونية ثوبا رقيقا عذبا احتوى تلك المعاني الرقيقة، وصورها أحسن تصوير.

يمزج الشاعر في صوره الشعرية بين جمال الممدوح وجمال الشهر، فهذا شهر الربيع الذي ولد فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهو شهر الزهر والسوسن والعبق أحله الله بأحسن الحل فكانت أجمل حلله ميلاد خير الخلق، وأحسنهم طرا:

يا له وجهها تجلى واستنار وازدهى نوراً
في شذا الخيري ولون الجلنار وسنا الشعرا
قد وشمى النمام فيه بالبهار فاكتسى بهرا⁽²⁶⁾

لذلك درج الشاعر "أحمد بن عمار" وغيره من الشعراء لنظم القصائد الموشحية في هذا الموسم المبارك، فقد كانت الأنسب لأداء غرض المدح؛ حيث تشيع الطرب في النفوس وتدخل لذة الحب إلى قلوب المستمعين، سيما وهي تنشد بأصوات شجية تظهر حسن الكلمات وجمال المعاني.

علاوة على ذلك فإن ما زاد من تناغم معاني الموشحة، تناسقها البنائي، حيث إنّ جملة أفعال الموشحة تشابه المطالع من حيث الأغصان والقافية. كما أنّ أدوارها تتطابق من حيث عدد الأسماء "ثلاثية" وتختلف في القوافي. ما جعلها لينة الكلمات مشحونة الصور، إذ عزز الشاعر من حالات وجدّه بمختلف الصور البيانية والبديعية فعدد استعاراته ومجازاته وكنائياته، ليوضح بذلك أبياته، وعمق شعور الحب للنبي صلى الله عليه وسلم وشهر مولده في قلوب السامعين والقارئین، يقول: واصفا وجدّه وصفا استعاريا: "وبكأس الأنس صرفا شربا ... كل ذي إيفان" و"ارتشفنا مرشفا... فسكرنا" فهو يوظف الاستعارة المكنية بتشبيه الأنس (الشعور المعنوي) بكأس الشراب أو الماء (المادي) حاذفا المشبه به "الماء"، محتفظا بخاصية الكأس على سبيل الاستعارة المكنية. وكذا الأمر في صورة "ارتشفنا". ليلجأ إلى مختلف الصور التشبيهية في معرض وصفه لجمال النبي صلى الله عليه وسلم وحسن أخلاقه فهو: البدر والنور، درة الكون، الغيث الصبح، الزهر، عقد السرور...، وهي تشبيهات بليغة تقرب الصورة وتعمق الإحساس إحساس لا ينكره إلا كافر بنبوة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، لذا

وجه الشاعر خطابا مباشرا لمن أبى التزود بنور بدر النبي صلى الله عليه وسلم وتمام هديه، فيقول لمعشر الكفار:

معشر الكفار قبحتم ملا سميء الخلق
أرسل الله إليكم مرسلا أصدق الخلق
فأبئتم واثنيتم جفلا عن حمى الحق⁽²⁷⁾

لقد جحدوا نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يعهدوا عليه كذبا ولا زورا فأذنوه بالحرب والعداء، غير أنهم ظفروا بالخسران وعى الأبصار. لقد كان النبي معجزة في نبوته حقا في بعثته، ما ضم الوجود مثله ولا جال بوهده أو نجود مثله مرسل. لذا وجد "الشاعر" سبيل المدح مذهبا يدنو به من الرسول الكريم لينال شفاعته ويتخذ حبه قرينة لله تعالى، فنجدته يختتم موشحته بالتبئل إلى الله عز وجل، ودعائه والصلاة والسلام على سيد الأنام وآله وصحبه. فكانت خرجة الموشحة مزيجا من عبق الحب والوجد للنبي عليه الصلاة والسلام وآله وصحبه الأخيار.

وشّح "أحمد بن عمار الجزائري" مولديته المدحية بمجموعة من الألفاظ والكلمات العذبة الخادمة لغرض المدح النبوي، كما نوع فيها مشكلا بذلك مجموعة الحقول اللفظية الدلالية التي توزعت من مطلع الموشحة إلى خرجتها، ولأن الغرض الشعري واحد كانت تلك الحقول الدلالية مشتركة في معانيها موظفة توظيفا فنيا بارعا، جسد من خلالها الشاعر حالة وجدته وشوقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم كلما تجدد موسم مولده العطر. يمكننا تلخيص جملة الحقول الدلالية ضمن ثلاث مجموعات هي: حقل الوجد والحب/ حقل الطبيعة/ حقل الصفات.

أ/ حقل الوجد

وظّف الشاعر معجما شعريا عذبا موعلا في أعماق الحب والعشق الصوفي لشخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ليجد فيها ملاذه وسلوانه من شوق طال أمده وفتك بقلبه من ذلك قوله: (وجد، القلب، الهوى، الحبيب، الحب، اشتياقي، الحشى، فؤادي، توق، شوق، حنين، دموعي...) وغيرها كثير لا يكاد بيت شعري من الموشحة يخلو منها. وقد دلت هذه الألفاظ في سياقها الشعري على حجم حب الشاعر وعشقه للنبي صلى الله عليه وسلم، ومدى شوقه لزيارة المدينة والتمتع بالقرب والشفاعة: "كلما حث الركاب بزلّه هزه شوق"⁽²⁸⁾، إنه

الشوق المحفوف بالوجد. شوق يعبر عن احتياج القلب إلى لقاء محبوبه وعلى قدر حبه يكون شوقه كما يعبر عن ذلك الصوفيون⁽²⁹⁾.

ب/ حقل الطبيعة

استمد الشاعر طاقته الشعرية وجمال لغته من حقل الطبيعة الغناء المزامنة لشهر مولد سيد الأصفياء صلى الله عليه وسلم، فعبر عن جمال الشهر والموسم النابع من جمال المولود الذي حلّ بأنواره وعبقه وشذاه؛ حيث لا يستطيع القارئ فك شفرات أبيات الموشحة ليميّز بين الممدوح (المصطفى) والموصوف (شهر الربيع) فقد مزج الشاعر بينهما مزجا متكاملًا عبرت عنه مفردات معجم الطبيعة تعبيرًا مباشرًا من مثل: (الربيع، الموسم، الغصن، الزهر، الآس، نبراس الياسمين، روضا، فصل الزهر، شذا الفل، لؤلؤ، الريحاني، النرجس، وردة، النداء، النسرين...)، حيث نجده تارة يصف جمال الربيع فصل الزهر والياسمين، وتارة يمدح محمداً عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ويصف جماله معتمداً على معجم الطبيعة اعتماداً كبيراً لتقريب صورة الممدوح وإيضاح معالمها.

ج/ حقل الصفات

يقوم غرض المدح على عدّ الفضائل والمميزات التي يختص بها الممدوح دون غيره، لذا يسلط الشاعر ضوءه على وصف الشخصية وصفاً دقيقاً يلامس فيه الصفات المادية والصفات المعنوية على حد السواء. فكيف بالشاعر وهو يمدح خير البرية ويصف أعظم الناس خلقاً وخلُقاً. لقد شحذ أحمد بن عمار الجزائري قريحته الشعرية وفصاحته معجمه اللغوي ليثني القول على رسول الله صلى الله عليه وسلم معللاً حبه وشوقه إليه بأنه خير الورى وخير الثقلين. وعليه زخرت أدوار الموشحة وأقفاؤها بأحمد الصفات وأجلّها، منها ما ارتبط بجمال محياه صلى الله عليه وسلم والذي كان أغلبه مستمداً من معجم الطبيعة من مثل قوله: (نوره البدر القوام، الغصن، الثغر، العزة، الجمال، الهباء، سنا الأحداق، الورد، قمرا، بدرا، بحرا...) ومنها ما ارتبط بجمال خُلُقهِ ومكانة نبوته: (خير الرحمن، خير الخلق، إحسانه، أخلاقه، سيدا المصطفى، معهدا، مرسل، صدقه، الأفضل، مفتاح، الهدى، الختام، هادي، السبيل، شفيعا خير الأنام).

اتسم معجم الصفات بألفاظ فريدة نحتتها مشاعر الأديب النبيلة، وغذتها قريحته الشعرية المميزة، فتعانقت مفردات الجمال والروح في قالب شعري طغت عليه معاني الحب والوجد والشوق للممدوح المتفرد في خلقه وخلقه.

خاتمة

- في ختام هذه الورقة البحثية أمكننا الوصول إلى جملة من النتائج نوجزها في الآتي:
- ارتبط المديح في الشعر العربي بالقصيدة ارتباطا جزئيا، حيث لم يكن في أول عهده غرضا مستقلا عن بقية الأغراض.
 - بحلول العصر الإسلامي استقل غرض المديح بقصائد ودواوين شعرية كاملة واتخذ فيه الشعراء سبلا متعددة.
 - توجه الشعراء في صدر الإسلام إلى المديح النبوي في إطار تأكيد مبادئ الإسلام وتعاليم الشريعة السمحاء، من أمثال حسان بن ثابت رضي الله عنه.
 - ارتبط إنشاء القصائد المديحية والموشحات المولدية في بلاد المغرب والجزائر- على وجه الخصوص- بالاحتفال بالمولد النبوي الشريف الذي أصبح عيداً يحتفي به السلف والخلف.
 - يعد الأديب و فقيه المالكية بالجزائر "أحمد بن عمار الجزائري" أحد أعمدة الإبداع الشعري في الجزائر والمغرب، وقد تفرد بقصائده المولدية من أمثال موشحته النونية وما بث فيها من أحاديثه عن معجزات الرسول، وأخلاقه وشفاعته ومدينته صلى الله عليه وسلم.
 - عبّر الشاعر من خلال موشحته المولدية عن حالات وجدّه وشوقه للنبي صلى الله عليه وسلم، والتي تزداد وتتجدد بتجدد موسم الربيع وشهر المولد الشريف فعدّد بذلك معجمه اللغوي، ونوع في حقوله الدلالية ليرسم أجمل صورة شعرية لخيرة خلق الله حُسنا وإحسانا.

قائمة المصادر والمراجع

- [1] ابن رشيّق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، تح وتّع: محمد محي الدين عبد الحّي، ج02، (د.ط)، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- [2] ابن سناء الملك: دار الطراز في عمل الموشحات، تح: جودت الركابي، ط02، دمشق، سوريا 1977م.

- [3] أبو العباس سيدي أحمد بن عمار: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، (د.ط)، مطبعة فونتانة، الجزائر، 1902م.
- [4] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (1830-1500)، ج2، ط01، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، (د.ت).
- [5] أبو القاسم عبد الكريم القشيري: الرسالة القشيرية، تح: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، ج02 (د.ط)، دار المعرف، القاهرة، مصر، (د.ت).
- [6] أدونيس: الشعرية العربية، ط01، دار الآداب، بيروت، لبنان، 1985م.
- [7] سامي مكي العاني: الإسلام والشعر، سلسلة عالم المعرفة، 66 أغسطس، الكويت، 1996م.
- [8] سراج الدين محمد: المديح في الشعر العربي، (د.ط)، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان.
- [9] محمد عباسة: الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور، ط01، دار أم الكتاب مستغانم، الجزائر، 2012م.
- [10] محمود علي مكي: المدائح النبوية، ط01، دار نوبار، القاهرة، مصر، 1991م.
- [11] واضح الصمد: أدب صدر الإسلام، ط01، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، لبنان 1994م.

التهميش والاقتباس

- ¹ أدونيس: الشعرية العربية، ط01، دار الآداب، بيروت، لبنان، 1985م، ص: 07.
- ² سراج الدين محمد: المديح في الشعر العربي، (د.ط)، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، ص: 06.
- ³ المرجع نفسه، ص: 06.
- ⁴ المرجع نفسه، ص: 06.
- ⁵ ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح وتغ: محمد محيي الدين عبد الحكي، ج02 (د.ط)، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص: 128.
- ⁶ المرجع نفسه، ص: 134، 135.
- ⁷ المرجع نفسه، ص: 135.
- ⁸ المرجع نفسه، ص: 131، 132.
- ⁹ واضح الصمد: أدب صدر الإسلام، ط01، المؤسسة الجامعية للدراسات، لبنان، 1994م، ص: 71، 72.
- ¹⁰ سامي مكي العاني: الإسلام والشعر، سلسلة عالم المعرفة، 66 أغسطس، الكويت، 1996م، ص: 108.
- ¹¹ محمود علي مكي: المدائح النبوية، ط01، دار نوبار، القاهرة، مصر، 1991م، ص: 12.
- ¹² المرجع نفسه، ص: 25.
- ¹³ المرجع نفسه، ص: 25.
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص: 98، 99.
- ¹⁵ المرجع نفسه، ص: 127، 128.
- ¹⁶ المرجع نفسه، ص: 128، 129.

- ¹⁷ المرجع نفسه، ص: 135.
- ¹⁸ أبو العباس سيدي أحمد بن عمار: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، (د.ط)، مطبعة فونتانة، الجزائر 1902م، ص، ص: 15، 16..
- ¹⁹ محمد عباس: الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور، ط01، دار أم الكتاب، مستغانم الجزائر، 2012م، ص: 48.
- ²⁰ المرجع نفسه، ص: 48.
- ²¹ ابن سناء الملك: دار الطراز في عمل الموشحات، تح: جودت الركابي، ط02، دمشق، سوريا، 1977م، ص: 32.
- ²² أبو العباس سيدي أحمد بن عمار: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، ص: 27.
- ²³ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (1500-1830)، ج02، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان (د.ت)، ص- ص: 224-231.
- ²⁴ أبو العباس سيدي أحمد بن عمار: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، ص: 16.
- ²⁵ المصدر نفسه، ص، ص: 17، 18.
- ²⁶ المصدر نفسه، ص: 20.
- ²⁷ المصدر نفسه، ص: 23.
- ²⁸ المصدر نفسه، ص: 16.
- ²⁹ أبو القاسم عبد الكريم القشيري: الرسالة القشيرية، تح: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، ج02 (د.ط)، دار المعرف، القاهرة، مصر، (د.ت)، ص: 497.